﴿ ۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ١١١ ﴾ [الأنعام: 111]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تفصيلُ الإجمالِ بيانٌ للمعاني وتمثيلٌ للواقعِ

تضمّنَتْ هذه الآيةُ تفصيلًا لمَا ورد إجمالًا قبْلها، في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩ ﴾ [الأنعام: 109]، فلنْ يُؤمنُوا حتّى وإنْ تحقّقَ مطلُوبُهمُ السّابقُ، بما ذكرَته هذه الآيةُ مُفصّلًا، من إنزال الملائكةِ، وإحياء الموتى ليُكلّمُوهم، ولو حُشِرَ عليهم كلُّ شيءٍ عِيانًا، وشهدَ هؤلاء جميعًا للرّسول بالصّدقِ، فما كانوا ليُؤمنوا لتأصُّلِهم في المكابرةِ والعِنادِ والكفرِ، فمقامُ هذه الآيةِ منَ السَّابقِ مقامُ التَّفصيلِ منَ الإجمالِ، والتَّمثيلِ بما يعلمُه المخاطَبون منَ البيانِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَلَّمَهُمُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (كَلِمَ)؛ الكَلامُ يقعُ على الألفاظِ المنظومةِ، وعلى المعاني الّتي تحتَها مجموعةً، وعند المُتكلِّمين لا يقعُ إلّا على الجُملةِ المركّبةِ المفيدةِ، وهو أخصُّ منَ القول، فإنَّ القولَ يقعُ عندهم على المفرداتِ[1]، والفرقُ بين الكلام والتّكليم؛ أنّ الكلامَ قد يُسمَعُ بغير مُتكلِّم به، والتّكليمُ لا يُسمَعُ إلّا من مُتكلِّم به[2]، ومعنى قولِه: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ أي: أسمعَ الموتى المشركينَ كلامًا مفهومًا، كأن يقُولوا لهم: إنّ وعدَ الله حقٌّ، وإنَّ محمّدًا هو رسولُ الله ﷺ.

(1) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(2) النّحّاس، إعراب القرآن: 4/132.

2) ﴿وَحَشَرْنَا﴾: جِذرُ الكلمةِ هو (حَشَر)؛ والحَشرُ هو الجَمعُ والسَّوقُ، يُقَال: حَشَرَ يَحشُر بالضَّمّ، ويَحشِر بالكَسر حَشرًا، إذا جَمَعَ وساقَ، ومِنهُ يَومُ المَحشَرِ[1]، ويأتي معنى الحشرِ مَجازًا في إجحَاف السَّنَةِ الشَّديدَةِ بالمَال[2]، والحَشرُ الجَمعُ مع السَّوقِ، وكلُّ جمعٍ حشرٌ، والحشرُ: السّوقُ والبعثُ والانبعاثُ[3]، وكذلكَ إذا حُشِرَ القومُ إلى بَلَدٍ أو مُعَسكَر أو نَحوِهِ[4]، ومعنى الحشرِ في الآية: جمعُ كلِّ شيءٍ إليهم حتّى يكلِّمَهم قُبُلًا ومشاهدةً، ومباشرةً، بصدقِ ما جاء به الرّسولُ، يعني: لو جُمِعَ لهم كلُّ ذلك ما حصلَ منهم الإيمان[5].

3) ﴿قُبُلًا﴾: جِذرُ الكلمةِ هو (قبل)؛ وقُبُلًا بمعنى: قَبيلًا قَبيلًا: جماعةً[6]. ويُقال: قِبَلًا؛ أي: عِيانًا، وقال: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ [الكهف: 55] بقراءة كسر القاف وفتح الباء[7]: أي: عِيانًا[8]. وقُبُلٌ: ما أقبَلَ منَ الإنسان، وهو جمعُ قبيل، والقَبيلُ: ما أقبَلت به المرأةُ من غزلِها حين تفتِلُهُ[9]، وقال الفرّاء والزّجّاج في معنى ﴿قُبُلًا﴾: "جمعُ قبيلٍ بمعنى كفيلٍ؛ أي: كفيلًا بصدقِ محمّد ﷺ، والقبيلُ: والكفيلُ والزّعيمُ والأدينُ، والحميلُ والضّمينُ، بمعنى واحد"[10].

4) ﴿يَجْهَلُونَ﴾: جِذرُ الكلمةِ هو (جَهل)؛ والجهلُ على ثلاثةِ أضرُبٍ؛ **الأوّل**: وهو خلوُّ النَّفس منَ العلم، هذا هو الأصلُ، **والثّاني**: اعتقادُ الشّيءِ بخلافِ ما هو عليه. **والثّالث**: فعلُ الشّيءِ بخلاف ما حقُّه أن يُفعلَ، سواءً اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: 67]، فجعلَ فعْلَ الهُزُو جهلًا، وقال ﷻ: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات: 6][11]، وجميعُ

(1) الزّحيلّي، التّفسير المُنير: 8/07.
(2) الزَّبيديّ، تاجُ العرُوس: (حشر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حشر).
(4) ابن منظور، لسانُ العرب: (حشر).
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 269.
(6) الأخفش، معاني القرآن: 1/310.
(7) ابن الجزري، النشر: 2/311، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر، ويعقوب.
(8) الأخفش، معاني القرآن: 1/310.
(9) ابن فارس، مجمل اللّغة: (قبل).
(10) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 9/12.
(11) الرّاغب، المفردات: (جهل).

هذه الحالاتِ يمكنُ أن يكونَ أصحابُها مُنكِرين للإيمان، لكنّها في هذه الآية تدلُّ على معنى الإنكار بجحودٍ، وهو فعلُ الشّيءِ بخلافِ ما حقُّه أن يُفعَلَ، مع اعتقادِهم فيه اعتقادًا جازمًا؛ لأنّ مَن يرى تلك الآياتِ المقترحةَ فلا بدّ له من أن يؤمنَ إيمانًا قاطعًا، ولا مجالَ للإنكارِ بعدَها.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عـنـادُ الـكـافـرِ بـؤسٌ وفـجـورٌ وبهتانٌ لا قناعةٌ وفكرٌ وبرهانٌ

تُبيِّن الآيةُ حالَ أولئك المشركين باختيارِهم طريقَ الكفرِ والإنكارِ، العادِلين بربّهم الأوثانَ والأصنامَ[1]، فلو أتيناهم بالآيات الّتي اقترحُوها من إنزالِ الملائكةِ في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، وتكليمِ الموتى إيّاهم في قولِهم: ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣٦﴾ [الدّخان: 36]، وزدناهُم فوقَ ذلك أنْ جَمَعنا لهم كُلَّ شيءٍ طلبوه منَ السّباعِ والدّوابِّ والطُّيورِ والجماداتِ كُفلاءَ بصحّةِ ما بشّرْنا به وأنذرْنا، أو جماعاتٍ، أو مُقابلةً ومُعاينةً، حتّى يشهدُوا بأنّك رسولُ اللّه ما كانُوا ليُؤمنوا؛ لأنّهُم قد اختارُوا طريقَ الكُفرِ والجُحُود سابقًا، ولكنّ اللّهَ سبحانه استثنَى برحمتِه، فجعلَ فُسحةً منَ الأمل في إيمانِهم، وذلك لبيان أنّ قضيّةَ الإيمان والكفر بيدِ اللّه سبحانَه وحدَه، ثمّ أكّد هذا المعنى بأنَّ أكثرَ هؤلاء الكفّارِ يجهلُ قدرةَ اللّه وعظيمَ شأنِه ومشيئتِه سبحانَه في تحويل مَن أرادَ هدايتَه منَ الكفرِ إلى الإيمانِ.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى جناية المشركين على أنفسهم؛ إذ فُتِحَ لهم البابُ فلم يدخلوا، وبُيِّن لهم الطريقُ فلم يَسلكُوا، فبعد ذلك إذا حُرِموا التّوفيقَ كان مُناسبًا لأحوالهم[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/46.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 269.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ﴾:

دورانُ الواوِ على معنى العطفِ والاستئنافِ

تحتملُ الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أن تكونَ لعطفِ هذه الآيةِ على جملةِ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩﴾ [الأنعام: 109] باعتبارِ كونِ جملةِ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، عطفًا على جملةِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 109]، فتكون الجُمَلُ الثّلاثةُ مُجتمعةً ردًّا على مضمُون قولِه: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: 109]، وبيانًا لقولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩﴾ [الأنعام: 109][1]، وفي ذلك ما فيه من بديع نسجِ النّظمِ ودقّتِه وجمالِه.

ويمكنُ أن تكونَ الواوُ استئنافيةً غيرَ عاطفةٍ؛ فبعد أن ذكرَ احتمالَ عدمِ إيمانهم بقولِه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩﴾ [الأنعام: 109] بعد أن أقسموا أنّهم سيؤمنُون إن جاءتهم تلك الآيةُ الّتي اقترحُوها، استأنف هنا ليؤكِّدَ استحالةَ إيمانِهم.

معنى ﴿وَلَوْ﴾ الصُّهَيبيّةِ:

استـواءُ إنـزالِ الآيـاتِ وعدَمِها عـنـدَ المشركين المعانِدين

(لوْ) هي المعروفةُ بـ (لو الصُّهيبيّة)، بسبب وقوعِ التّمثيلِ بها في القول المشهور: (نِعمَ العَبدُ صُهَيبٌ، لَو لَم يَخَفِ اللّهَ لَم يَعصِهِ)[2]، والمقصودُ انتفاءُ عصيانِ صُهيبٍ، في جميع الأحوال والأزمنةِ، ولو فُرِضَ عدمُ خوفِه لَمَا عصَى، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾، فالمعنى أنّ إيمانَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/5.

(2) اشتهر هذا النّص عند الأصوليّين وعلماء اللّغة، وذكره ابن مالك في شرح الكافية، وقال البهاء السُّبكيّ: إنّه لم يعثر عليه في كتب الحديث، وذكره أبو نعيم في الحلية: 1/177، وضعّفه، وذكره الدّيلميّ، ولكنّه من قول عمر بن الخطاب ﷺ في ابنه سالم، لا كما اشتُهر أنّ المقولة في صُهيب. يُنظر: السّمهوديّ، الغُمّاز على اللُّمّاز: 327، والعجلُونيّ، كشف الخفاء ومُزيل الإلباس عمّا ورد منَ الأحاديث على ألسنة النّاس: 2/391.

مُنْتفٍ في جميع الأحوال، حتّى في هذه الحالة الّتي شأنُها أنْ لا ينْتَفي عندها الإيمانُ[1]، وفي هذا الاستعمال يضعُفُ معنى الامتناع الموْضوعِ له (لَو)، وتصيرُ لمجرّدِ الاستلزامِ.

تعيينُ محذوفٍ يُقدَّرُ في السياق:

الإعجازُ الغَيبيُّ حـجّـةٌ عـلى المُعاندين وتأييدٌ لسيِّدِ المرسلين

يُقدَّرُ فعلٌ محذوفٌ بعد (لو) في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، ويكونُ (أنَّ) وما في حيِّزِهَا في موضع فاعلٍ، وتقديرُه: لو ثبت إنزالُنا. وهذا من قَبيل الإعجازِ الغيبيِّ في القرآن الكريم، وهو حُجّةٌ على المُعاندين، وإن لم يقعْ، ولكنّه حقيقةٌ عند اللّه في علْمِه المُغيَّبِ عنِ النّاس، وفي هذا النّظم انسجامٌ مع المعنى، فإخفاءُ الفعل متوافقٌ مع خفاءِ حقيقةِ ما يمكنُ أن يقعَ منَ المُعاندين إن نزلتْ تلك الآياتُ، وهذه الآيةُ من آياتِ صدْقِ النّبيِّ فيما أخبرَ عن ربِّه؛ إذ إنّهم يَقدرون على ادِّعاءِ الإيمان، لكنَّهم لم يصنعُوا لشديد عنادِهم وكبيرِ كِبْرِهم؛ فعلمَ اللّهُ ذلك فأخبرَ عنه، فوقعَ كما أخبرَ.

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ:

يمكنُ الوقوفُ على توجيهِ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ مع قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾: وذلك في الأمورِ الآتيةِ:

فائدةُ ذكْرِ ﴿أَنَّنَا﴾ دون أن يقولَ: (ولو نزّلنا):

الزّيادةُ في المبنَى دليلُ الزّيادةِ في المعنى وتأكيدٌ له

افتُتحَتِ الآيةُ بقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا﴾؛ فالضّمير (نَا) دالٌّ على العظمة البالغةِ، بما أشار إليه جمعُ النُّوناتِ[2]؛ لبيان عظيم القُدرةِ على إيقاع هذا الفعلِ في جعل الملائكةِ تتنزّلُ عليهم، وذلك على خلافِ الآيةِ السّابقةِ ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾؛ إذ تتنزّلُ عليهم الملائكةُ تتابعًا، وفي أزمنةٍ مختلفةٍ وأماكنَ عدّةٍ، وذلك أعظمُ من نزول

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/310، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/559.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/695.

ملَكٍ واحدٍ لمرّةٍ واحدةٍ على رجلٍ واحدٍ وهو النّبيُّ ﷺ، فكان التَّأكيدُ والتَّعظيمُ مناسِبَين في هذه الآيةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّنزيلِ لا الإنزالِ:

نـزولُ الملائكةِ يكـون على دفعـات في الزمان والمكان

قال الجُرجانيُّ: "الإنزالُ يُستعمَلُ في الدُّفعةِ، والتّنزيلُ يُستعمَلُ في التّدريجِ"(1)، ومن هنا فبين اللّفظتين فرقٌ، والتّعبيرُ القرآنيُّ يأتي بلفظِ (أنزل) - غالبًا - عمّا نزلَ دُفعةً واحدةً، وما نزلَ مُفرّقًا مُنجَّمًا يأتي بلفظِ (نزّل)، فاختلافُ التّعبيرِ دالٌّ على اختلافِ صِفةِ التَّنزيلِ. ففي قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ دلَّ على أنّ الملائكةَ تتنزّلُ عليهم في أوقاتٍ مختلفةٍ متواليةٍ، وفي قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾: دلَّت على نزولِ ملَكٍ واحدٍ، فإنّه اقترحَ إنزالَه لمرّةٍ واحدةٍ.

فائدةُ ذكْرِ ﴿إِلَيْهِمُ﴾ دون أن يَكتفِيَ بالقولِ: (ولو أنّنا نزلنا الملائكةَ):

غـايـةُ تـنـزُّلِ الملائكةِ هو لقاءُ النّاسِ والكشفُ عـن حـقـيـقـةٍ مُغيَّبةٍ

تفيدُ (إلى) انتهاءَ الغايةِ، جاء في المُقتضبِ: "وأمّا إلى فإنّها هي للمُنتهَى"(2)، ومعنى انتهاءِ الغايةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾؛ أي: أنّ الملائكةَ يَلقَونَ النّاسَ، فكان غايةُ ما وصلَ إليه الملائكةُ، وغايةُ تنزّلهم هو لُقيَا هؤلاء النّاسِ، كما أنّ فيها معنى اللّقاءِ، دون الإيحاءِ، ودون التّكليمِ بشيءٍ منَ العلمِ والغيْبِ على خلافِ ما هو الحالُ مع الرُّسُلِ.

دلالةُ جمعِ الملائكةِ دونَ الإفراد:

أغـراضُ نـزولِ الملائكةِ متعددةٌ فيتعدّدُ نزولُها، عـكسَ الـوحـي فيكفِي فيه نزولُ ملَكٍ واحدٍ

جمعَ الملائكةَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾؛ لإرادةِ التَّفريقِ، فيكونُ التّنزيلُ مكرّرًا، فجاء الجمعُ لإفادةِ ذلك، فهم يتنزّلون عليهم بين حينٍ وآخرَ، كأحدِ أهمِّ آياتِ الإيمانِ بأنّهم مبعوثون من عند اللّه تعالى إليهم. أمّا إفرادُ المَلَكِ في قولِه تعالى:

(1) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 73.

(2) المبّرد، المقتضب: 4/139، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/378، والسّمين، الدّرّ المصون: 3/21.

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ فهو إشارةٌ إلى الوحْي، أو أنّه يَكفيهم أن يرَوْا ملَكًا واحدًا، ينزلُ على رسولِ الله مُؤيِّدًا له.

والآيةُ الكريمةُ تعرضُ صورةً عن خبرِ التّيئيسِ من إيمانِ فئةٍ منَ النّاس، يحملُون في أذهانهم انحرافًا فكريًّا، لذلك جعلُوا شرطَ إيمانِهم حدوثَ خوارقَ مُعجزةٍ، تُخالفُ نواميسَ الكونِ والحياةِ، لِيُصدّقُوا بالرّسالةِ المحمّديّةِ، ويُؤمنُوا بها، فاشترطُوا على رسولِ الله ﷺ إنزالَ الملائكةِ، وتكليمَهم الموتَى وغيرَ ذلك.

علّةُ عطْفِ جملةِ: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

الاشتراكُ في الخبريّةِ في استحالةِ الوقوعِ عادةً

جملةُ: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾، وذلك ما اقترحُوه عندما قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: 21][1]، وعلّةُ العطفِ هو الاشتراكُ في الخبريّة، والجامعُ بين الخبرين هو استحالةُ وقوعِهما عادةً.

سرُّ إسنادِ التّكليمِ إلى الموتى لا إلى الله:

تكليمُ الموتى شهيّةٌ ضامرةٌ في النّفسِ البشريّةِ حرّكَها القرآنُ في نفوسِ المشركين

أُسنِدَ التّنزيلُ في الجملةِ السّابقةِ في قولِه تعالى: ﴿نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ إلى الله تعالى، وفي الجملةِ اللّاحقةِ أُسنِدَ الحشرُ إلى الله تعالى، وفي هذه الجملة في قولِه تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أُسنِدَ التّكليمُ إلى الموتى؛ إذ لم يقُلْ هنا: (وجعلنا الموتى تُكلّمُهم)، أو نحوَه كما في السّابقةِ واللّاحقةِ، وفي ذلك توافقٌ وانسجامٌ مع ما طلبوه هم من تكليمِ مَن يعرفون منَ الأموات؛ فقالوا: ﴿فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ [الدّخان: 36]، فجعلَ الخطابَ مباشرًا بينهم وبين أمواتهم؛ لَمَا بينهم منَ القرابة والصّلةِ؛ إذ لا يحتاجُ الأمرُ إلى وسائطَ يظهرُ أثرُها في السّياقِ، فقال: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ إذ سيكونُ التّواصلُ بينهم مباشرًا حالَ خروجِهم من قبورِهم وتكليمِهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/209.

البعثِ، وتحريكٌ لبواعثِ الفكرِ، وفتحٌ لشهيَّة تكليمِ الآباءِ منَ الموتى، فنكتةُ إسنادِ التَّكليمِ للموتى إطلاقُ الفكرِ في وقوعِ مثلِ هذا الأمرِ، وتصويرِهِ للمخاطَبِ كيف يكونُ لو وقعَ.

معنى التَّعريفِ في: ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

عنادُ المشركين بلغَ بهم أن عصَوا آباءهم الّذين يزعمُون اتِّباعَهم

في قولِه تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يُحمل التَّعريفُ في لفظِ ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ على العهْدِ؛ أي: الموتى الّذين يعرفونَهم، كأنَّه قال: موتاكُم، إذ أخذُوا شركَهم وتقاليدَهم وعباداتِهم عن موتاهم، ويُقوِّيه أنَّهم طلبُوا إحياءَ آبائِهم ليكلّمُوهم عن شأنِ محمّدٍ ﷺ؛ وعمّا واجهوا بعد الموت، كما قالوا: ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ [الدّخان: 36]، أو يُحمَل على الجنسِ؛ أي: جنسِ الموتى، بقطعِ النَّظر عن أيِّ اعتبارٍ آخرَ.

علَّةُ عطْفِ جملةِ: ﴿وَحَشَرْنَا﴾:

يدلُّ العطفُ على إمكان قدومِ هذه الآياتِ مجتمعةً أو متفرّقةً

سببُ العطفِ هو اشتراكُ الجُملِ في الخبريَّة، فهي منَ التَّوسّطِ بين الكمالَيْن، وقوله تعالى ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ في مَعرِضِ تَعدادِ الآياتِ المقترَحةِ الّتي إن حدثَت أمامَ النّاس فإنّهم لا محالةَ يؤمنون، ولكنّ هؤلاء لن يؤمنُوا حتّى وإن جاءَت هذه الآياتُ مجتمعةً أو متواليةً، وأداةُ العطفِ (الواو) للجمع؛ إذ يدلُّ العطفُ على إمكان قدومِ هذه الآيات مجتمعةً أو متفرّقةً، لكنّها جميعَها تُؤدّي الغرضَ نفسَه؛ وهو إعجازُ هؤلاء المُعاندين، وإظهارُ ضعفِهم أمام عظيمِ شأنِ اللّه وقُدرتِه، وأنّ الهدايةَ بيد اللّه سبحانَه.

براعَةُ المُقابلةِ بينَ: ﴿نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ﴾ وبينَ: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾:

التّنزيلُ مَشوبٌ بالرَّحمةِ والهدايةِ، والحشرُ مَليءٌ بالأدلّةِ والبراهين

مُقتضى ظاهرِ النَّظمِ أن يكونَ: (نزلّنا عليهم، وحشرنا إليهم)، لكنَّ النَّظمَ عدلَ عن ذلك إلى ما جاء عليه، وسرُّه أنَّ استعمالَ حرفِ (إلى) في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ لبيانِ أنَّ التَّنزيلَ كان مقصودُه الهدايةَ والرَّأفةَ بهم، ويُناسبُ هذا المقصدَ حرفُ (إلى) أكثرَ من (على)، وفي استعمال حرف (على)

في قولِه تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾؛ لبيانِ أنَّ الجمعَ كان مقصودُه إظهارَ البُرهان سواءً في المقابلة والمعايَنةِ، أو الكفالةِ، والأنسبُ لهذا المقصدِ حرفُ الاستعلاءِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالحشْرِ لا بالجمْعِ:

دعوى حشْرِ كلِّ شَيءٍ لا تصدُرُ إلَّا عنِ العظيمِ سُبحانَه

في قولِه تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ اختصَّت مُفردةُ الحشْرِ في معنيين:

المعنى الأوّل: الدّلالةُ على الجمْعِ منَ النّواحي البعيدةِ إلى جهةِ المركزِ، وهي جهةُ المحشرِ؛ فيتضمّنُ معنى ﴿وَحَشَرْنَا﴾ الجمعَ مع السَّوْقِ إلى جهةٍ مُعيّنةٍ؛ تُجمعُ فيها الخلائقُ كلُّها، وهُو مشهدٌ في غاية الشّدّةِ والرّهبةِ.

المعنى الثّاني: وهُو مشهدٌ مُتمِّمٌ، يُصوّرُ البعثَ للمخلوقاتِ، من أوّلِ يومٍ قُدِّر لها الحياةُ إلى لحظة ذلك الحشْرِ، وموضعُ الإعجازِ هنا، هو حشرُها بعد موتِها، ثُمّ إنّها على اختلافِ طبائعِها تكونُ مُجتمعةً في موقفٍ واحدٍ[1].

فائِدةُ إسنادِ الحشْرِ إلى ضَميرِ العَظَمةِ في: ﴿وَحَشَرْنَا﴾:

حشرُ المخلوقاتِ لا يكون إلّا لله سبحانه

قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾، ولم يقُلْ: (وحُشِرَ عليهم كلُّ شيءٍ قبلًا)؛ لبيانِ عظيمِ شأنِ اللّه وقُدرتِه في جمع المخلوقاتِ وحشْرِها، وأنّه سبحانَه هو مَن يحشرُ تلك الخلائقَ، ففيها إيماءٌ إلى عظيمِ ذلك الصَّنيعِ، وعجيبِ أمرِه.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

اختصاصُ الحشْرِ بالمنكِرين المعانِدين إقامةً للحُجَّةِ وتثبيتًا للبرهان

في قَولِه تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿عَلَيْهِمْ﴾ للاختصاصِ والمبالغةِ والاهتمامِ؛ إذ أفادَ التّقديمُ تصويرَ مشهدِ الاستعلاءِ وهيْمنةِ ذلك الحشْرِ على أولئك

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/150.

المعاندين على وجه الخُصوص، وبيانَ قُدرةِ الله سبحانه في عظيم ذلك المشهد، كما أفادَ هذا التّقديمُ الاهتمامَ بذلك الحشْرِ العظيم؛ الّذي تضمّنَ كلَّ شيءٍ ممّا خلق اللّهُ تعالى؛ ليشهدُوا عجائبَ خلْقِ الله وعَظَمَتَهُ وقُدْرَتَهُ سبحانَه.

دلالةُ تعْدِيةِ فِعلِ الحَشرِ بحرفِ (على):

إبـــرازُ غـــرَضِ المبالغةِ في بيانِ حشْرِ كلِّ شيءٍ لهم، وتضمينُ فـعْـلِ الـحـشْرِ معنى البعْثِ والإرسالِ

في قَولِه تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ عُدِّي فِعلُ الحَشرِ بـ (على) لا باللّام كما في قولِه تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾، أو بحرفِ (إلى) كقولِه تعالى: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران: 12]، وذلك أنَّ التّعبيرَ بالحشْرِ للمُبالغة، ولذلك كانت تَعْدِيَتُهُ بالحرفِ (عَلَى)[1]، الّذي يفيدُ معنى الاستعلاءِ الحقيقيِّ أو المجازيِّ، ولفظُها يدلُّ على ذلك فهي منَ العُلوِّ، وفي الآية: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ من قَبيل الاستعلاءِ المجازيِّ، وهي مثلُ قولِهم: (عليه دَينٌ)، كأنّه يحملُ ثِقَلَ الدَّين على ظهره[2]، ولو عُدِّيَ باللّام أو بـ (إلى) لضعُفَ غَرَضُ المبالغةِ في الآيةِ.

وتتضمّنُ التّعديةُ بحرف الجرّ (عَلَى) تمثيلًا رهيبًا؛ فكأنّ الكائناتِ المحشُورةَ تنحدرُ عليهم من كُلّ مكانٍ مُرتفعٍ، وهُم في سهلٍ مُنخفضٍ، وقد استقطبتْها بُؤرةٌ واحدةٌ، هي موضعُ المُعارضين للإيمان، وقد ضُمِّن الحشْرُ معنى البعثِ والإرسالِ؛ لذلك عُدِّي بحرفِ (على)[3]، فأفاد الفعلُ معنيين، فيهما تصويرٌ حيٌّ، وحركةٌ دؤُوبٌ، وهما الجمعُ والإرسالُ، وذلك على قاعدة التّضمينِ الذّي يُحقّقُ معنى الفعْلَين[4].

(1) القُونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/238.
(2) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 8/37.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/6.
(4) أحمد الخرّاط، الإعجاز البيانّي في ضوء القراءات القرآنيّة المتواترة: 253.

بيانُ براعةِ ذكرِ الخَاصِّ بعدَ العامِّ في قوله تعالى: ﴿كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا﴾:

في قوله: ﴿وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا﴾ يمكنُ أن يُرادَ معنى العُموم بقوله: ﴿كُلَّ شَيۡءٖ﴾؛ ليشملَ جميعَ ما خلق اللّهُ تعالى، ويمكنُ أن يُرادَ به العامُّ المرادُ به الخصوصُ؛ لأنَّ المَقامَ يُخَصِّصُهُ بكُلِّ شَيءٍ ممَّا سألُوهُ، أو من جنسِ خَوارقِ العاداتِ والآياتِ، مِثلِ قَولِهِ تعالى في ريحِ عادٍ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: 25]، والقَرينَةُ هيَ ما ذَكَرَ قَبلَهُ من قَولِهِ: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾[1].

بلاغةُ ترتيبِ الجُمَلِ الثّلاث في الآية:

بـديـعُ أسـلـوبِ التّرقّي في إظهارِ عـظـيـمِ قُـــدرةِ اللـه في إحـداثِ الخوارقِ

في قوله تعالى: ﴿نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا﴾ ترقٍّ؛ والتّرقّي: منَ الفعل (رَقَى)؛ أي: عَرَجَ، والتّرَقّي: هو التّدرُّج في الرُّقِي، وفي الاصطلاح: هُو أن يُعرَجَ بالكلام من معنى إلى معنى أعلى[2]، وفي الآية ابتدأ بما طلبُوه، فذكرَ إنزالَ الملائكة، ثُمّ تكليمَ الموتى، ثم أن يَحشُرَ اللّهُ تعالى كُلَّ المخلوقاتِ، فتشهدَ برسالةِ محمّدٍ ﷺ، فتَرَقّى التّعدادُ من مطلَبَيهِم أوّلًا وثانيًا، إلى ما زاد الله عليهم في المُعطى الثّالث، فقال: ﴿وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا﴾ – على القول ببقاءِ العامِّ على عمومِه – ممّا يُشيرُ إلى مجموع ما سألُوه وغيرِه، فهُم لم يطلبُوا أن يُحشَرَ عليهم كلُّ شيءٍ قُبُلًا، ولكنّها زيادةٌ في إقامةِ الحجَّة، لتصلَ بالمُتلقّي إلى أعلى ما يمكنُ أن يُتصوّرَ منَ الاقتراحاتِ التّعجيزيّةِ لرسول الله ﷺ؛ لأنّ اللّهَ تعالى قادرٌ سبحانه أن يحشُرَ كُلَّ شيءٍ قُبُلًا، كما وردَ في الآية الكريمةِ، و"الأشياءُ المَحشُورَة منها ما يَنطِقُ ومِنها ما لا يَنطِقُ، فإذَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/6.

(2) التّرقّي وعكسُهُ التّدليّ، وهما منَ البديع في البلاغة، وذلك بذكر المُتعدّدات من جنسٍ أو نوعٍ، أو صنفٍ واحدٍ، إذا كان بينها تفاضلٌ في الدَّرَجات أو المراتب، أن تُذكر إمَّا منَ الأدنى إلى الأعلى ترقّيًا، أو منَ الأعلى إلى الأدنى تدلّيًا، ما لمْ يدْعُ داعٍ بلاغيّ آخر، يحرصُ المتكلّمُ أن يشيرَ إليه بمخالفة هذا النّظام، كمراعاة رُؤوس الآي، وكالتّنويع في نصوص مُتعدّدة.

أَنطَقَ اللّٰهُ الكُلَّ وأَطبَقُوا على قَبُولِ هَذِهِ الكَفَالَةِ، كانَ ذَلِكَ مِن أَعظَمِ المُعجِزاتِ"[1].

مشاهدُ تخيليّةٌ افتراضيّةٌ اقترحها المُنكِرون تَحَدِّيًا وتعجيزًا للرّسول ﷺ

ومن جمال فنّ (التّرقّي) أنّه بدأ بالمطلب الأيسرِ عليهم، فذكر إنزالَ الملائكةِ إليهم؛ لتأتيَهم بالبُشرى وتشهدَ لهُم بنُبوّة مُحمّدٍ ﷺ، وهذا ما يُمكنُ أن تتقبّلَه نفوسُ كثيرٍ منَ النّاس، ثُمّ ارتقى المشهدُ إلى ما هو أصعبُ وأجلُّ على النّفس الإنسانيّةِ، وهو تكليمُ الموتى، وهذا مشهدٌ يُمكنُ أن تتقبّلَه الأقليّةُ منَ النّاس، ويخشاهُ أغلبُهم، ثمّ ارتقى بهم المشهدُ، إلى أقصى ما يُمكنُ أن يُتخيّلَ ويُتصوّرَ، وهو أن تُجمَعَ مخلوقاتُ الدُّنيا وحُوشُها وطيورُها وزواحفُها، وجِنُّها وإنسُها، وأحياؤُها وأمواتُها، وهذا ما لا يطلبُه عاقلٌ حتمًا، وهذا المطلبُ لم يخطرْ ببالهم أصلًا، لكنّ التّعبيرَ القرآنيَّ ارتقى بالخطاب إلى اقتراحٍ مُفترَضٍ؛ ليقطعَ عليهم كُلَّ مطلبٍ، أو زيادةٍ أخرى فوق ما طلبُوا من آياتٍ.

وبعد أن رسَمَ التّرقّي مُنحنى المطالبِ تصاعُدًا، أظهر السّياقُ جمالًا فريدًا لهذا الفنِّ البلاغيِّ الأصيلِ؛ فبانت بلاغتُه في إكمال المشهدِ، بدرجاتِه وإحداثيّاتِه، تلك الّتي رسمتْ مُنحنى المُحاجَجَةِ، صُعُودًا نحوَ أعلى درجات الحُجّة والبُرهانِ، ثُمّ جعلتْها جميعًا تسقُطُ في مُستوى واحدٍ، وعلى خطٍّ صِفريٍّ مُفترَضٍ، تتلاشى عنده كلُّ الإرادات أمامَ إرادةِ اللّٰه تعالى، في هدايةِ أولئك القومِ أو عدمِها، فقال سبحانه: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، فتهاوَتْ تلك المُقترحاتُ الصّاعدةُ على سلّم التّرقّي، كاسِرَةً معها جبروتَ المعاندين، أمامَ مشيئةِ اللّٰه ربّ العالمين؛ لأنّه هو خالقُ تلك الأنفسِ، العالمُ بدواخلِها وأسرارِها، أكثر ممّا يعلمُ أصحابُها أنفُسُهم عنها، ولهذا أتبعَها بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾؛ بمعنى: أنّهُم يجهلون الحقيقةَ الكبرى، ولا يُدركون المشيئةَ العُظمى.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/117.

توجيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ في قَولِه تعالى: ﴿قُبُلًا﴾:

معنيَا الكفالةِ والمعـايَـنـةِ حـاضـران في سياقِ الآيةِ

اختلفَ القرّاءُ في قراءة ﴿قُبُلًا﴾[1]، فقرأ الجمهورُ بضمّ القاف والباء ﴿قُبُلًا﴾، ولها في المعنى ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُها: أن يكون (القُبل) جمع (قَبيل)، كالرُّغُف الّتي هي جمع (رَغيف)، و(القُضُب) الّتي هي جمع (قَضيب)، ويكون (القُبُلُ): الضُّمناءَ والكفلاءَ، وإذا كان ذلك معناه، كان تأويلُ الكلام: (ولو حشرْنا عليهم كلَّ شيءٍ كُفَلاءَ، يكفُلون لهم الّذي نعدُهم على إيمانهم بالله، أو الّذي نُوعِدُهم على كفرِهم بالله، لَما آمنوا إلّا أن يشاءَ الله).

والوجه الآخر: أن يكون (القبلُ) بمعنى المقابلةِ والمواجهةِ، من قول القائل: (أتيتُك قُبُلًا لا دُبُرًا)، إذا أتاه من قِبَل وجهِه.

والوجه الثّالث: أن يكونَ معناه: (وحشَرْنا عليهم كلَّ شيءٍ قبيلةً قبيلةً، صنفًا صنفًا، وجماعةً جماعةً)، فيكونَ (القبلُ) حينئذٍ جمْعَ (قَبيل)، الّذي هو جمعُ (قبيلة)، فيكونَ (القُبُلُ) جمعَ الجمْعِ[2].

وقرأ نافعٌ وأبو جعفر وابنُ عامر بكسر القاف ونصبِ الباء (قِبَلاً)، ومعناه: (وحشَرْنا عليهم كُلَّ شيء معاينةً فَعايَنُوهُ[3]، وشاهدُوه)[4]، والمعاني كلُّها مُرادةٌ مُجتمعةً؛ وكلٌّ منها يكمّلُ الآخر.

بلاغةُ اختيارِ مفردةِ: ﴿قُبُلًا﴾ في الدّلالةِ على المَقصودِ:

معاينةُ المعجزةِ أصدقُ دليلٍ على صحّةِ الرّسالةِ

اختلفَ المفسّرون في معنى ﴿قُبُلًا﴾ هل هي بمعنى الكفالةِ أو المعاينةِ، أو قبيلةً قبيلةً، وصنفًا صنفًا، وجماعة جماعةً؛ أي: كفالةُ صحّةِ الرّسالة، أو معاينةُ الخوارقِ بما فيها القبائلُ والأصنافُ

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/262.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/493، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/469.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/475.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/208.

والجماعاتُ، والصّحيحُ أنّ الاختيارَ السّياقيَّ لهذه المفردةِ يدلُّ على المعنيَيْن، فإنّ ما يراه هؤلاء عَيانًا هو كفالةٌ في صحّةِ دعوَى الرّسالةِ، وهل من كفالةٍ أصدقُ منَ المعايَنةِ.

نُكتةُ إيثارِ النَّفي على الإثباتِ:

المطلوبُ تحقيقُ الإيمان، فالكفرُ تحصيلُ حاصلٍ

لم يقُل: (لكفرُوا)، بدلَ قولِه: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾، ونكتتُه أنّهم كفرةٌ أصالةً، وغايةُ إحضارِ تلك الآياتِ إنّما هو تحقيقُ إيمانِ النّاس، وتركِ كفرهم، فالمطلوبُ من إنزالِ تلك المعجزاتِ هو إحداثُ الإيمانِ في قلوبِ المعانِدين، فنُفيَ المطلوبُ لا الموجودُ؛ لأنَّه تحصيلُ حاصلٍ.

فائدةُ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾:

نفيُ كينونةِ الإيمان في صدورِ المعاندين في عُمومِ أحوالِهم

جاءتِ اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾، الّتي هي لامُ الجُحودِ، والفعلُ المضارعُ منصوبٌ بـ (أنْ) مُضْمَرَةٍ بعدها، أبلغَ في الدّلالة منَ القول بـ (ما آمنُوا) أو (لم يؤمنوا) أو (لا يؤمنون)، والمعنى: ما كانُوا مُريدِين لأن يُؤمنوا إلّا أن يشاءَ اللّهُ[1].

وذهب أبو حيّانَ إلى أنّ الأصلَ في المنفيّ، أن لا تدخلَ عليه اللّامُ، لكنّ قولَه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾ أبلغُ في النّفي من قولِه: (لم يُؤمنوا)؛ لأنّ فيه ما عبّرَ عنه بنفْيِ التّأهُّلِ والصّلاحيّةِ للإيمان، وهو السّرُّ في ورود لامِ الجُحود في الخبرِ[2].

والمعنى في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾ أشدُّ قُوّةً ممّا لو قيل: (لَا يُؤمِنُونَ) أو (ما آمنوا)؛ تقويةً لنفْيِ إيمانهم؛ لأنّ فيه نفيَ التّأهُّل والصّلاحيّةِ للإيمان بنفْيِ الكينونةِ، فهم مُعاندون مُكابِرون لا يبغُون الحقَّ، فلو طَلَبوا الحقَّ بإنصافٍ لكفَتهم مُعجزةُ القرآن؛ لأنّ فيه منَ المُعجزات والطّاقاتِ المُستوعبةِ لنفوسِ أولئك الّذين يطلبُون الحقَّ، ويبحثُون عنِ الصّراط المستقيم، ما فيه الغَناءُ والكفايةُ، قال تعالى:

(1) الشنقيطي، العذب النّمير: 2/566.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/622.

﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: 21]، ولكنّهم تطاولُوا وأنكرُوا تلك المعجزةَ الّتي أعجزَتْ كُلَّ مَن مدّ عنقَه ليأتيَ بمثلِها، فكان إيمانهُم مُستحيلًا.

معنى الاستثناءِ في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾:

الاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناءٌ متّصلٌ من محذُوفٍ هو سببُ التّقديرِ وعلّتُه، وتقديرُه: (مَا كَانُوا لِيُؤمِنُوا لِشَيءٍ مِنَ الأَشيَاءِ إِلَّا لِمَشيئَةِ اللهِ)، أو: (مَا كَانُوا لِيُؤمِنُوا في كُلِّ حَالٍ إِلَّا في حالِ مَشيئَةِ اللهِ)، وجعلَه بعضُهم استثناءً مُنقطعًا، والتّحقيقُ أنّ الاستثناءَ مُتّصلٌ، خلافًا لمَن زعم أنّه منفصلٌ، والمعنى: ما كانوا ليُؤمنوا في حالةٍ منَ الأحوال إلّا أن يشاءَ اللّهُ ذلك؛ لأنّهم مُتعنِّتُون[1].

التّحقيقُ أنّ الاستثناءَ متّصلٌ في بيانِ المشيئةِ

قال أبو حيّانَ: "وذلك قولُ أهلِ السُّنّة، أنّ إيمانَ العبد واقعٌ بالمشيئةِ، وحملَه المعتزلةُ على الإلجاءِ والقهرِ، وسمّاها الزّمخشريُّ مشيئةَ إكراهٍ واضطرارٍ، وقولُ أهلِ السّنّةِ هو الأظهرُ"[2].

فهو استثناءٌ من عُمومِ الأحوالِ الّتي تضمّنَها عمومُ نفْيِ إيمانِهم، فالتّقديرُ: إلّا بمشيئةِ اللّه، ففي قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعريضٌ بوعْدِ المُسلمين بذلك[3]، ولعلَّ في هذا الاستثناءِ المعبِّرِ عنِ المشيئةِ الإلهيّةِ، بصيصَ أملٍ لأولئك المعاندين في كلّ زمانٍ ومكانٍ، أن تُصيبَهم مشيئةُ اللّه وهدايتُه لهم فيؤمنُون.

الأملُ في رحمتِه سُبحانه أن تُصيبَهم مشيئةُ الله فيؤمنُون

واليومَ نجدُ كثيرًا من هؤلاء يعترفون بالإيمان، في أواخرِ لحظاتِ حياتِهم، فيُعبّرون بصدْقٍ عن مُوافقاتٍ حدثَتْ في حياتِهم، جعلتْهم يُؤمنون بوُجودِ خالقٍ لهذا الكونِ، ومنها قولُه تعالى - على القول بأنّ الضّميرَ الأوّل ﴿بِهِۦ﴾ للّهِ، أو يعودُ على النّبيّ محمّدٍ ﷺ -: ﴿وَإِن مِّنۡ

(1) الشنقيطي، العذب النّمير: 2/566.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/622 - 623.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/6 - 7.

أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ [النّساء: 159]، فلعلّ المقصودَ من قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ اعترافُهم بالإيمان في حياتِهم.

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾:

الانتقالُ منَ الحديثِ عنِ الخوارقِ إلى الثّوابتِ انتقالٌ في النّظمِ والأسلوبِ

التفتَ الخطابُ منَ التّكلُّمِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ﴾؛ وقولِه: ﴿وَحَشَرْنَا﴾ إلى الغيبةِ في اسمِ الجلالةِ الصّريحِ (اللّه) في قولِه: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ولم يقُلْ: (إلّا أَنْ نَشَاءَ)، وفيه إيماءٌ إلى نُكتةٍ بلاغيّةٍ عميقةٍ، أفادَها الالتفاتُ؛ وهي أنَّ المشيئةَ ثابتةٌ في كلِّ الأحوالِ، فلم تأتِ جملةُ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ على السَّننِ المذكورِ في النَّظمِ؛ لأنَّ تنزُّلَ الملائكةِ وتكليمَ الموتى وحشْرَ كلِّ شيءٍ عليهم قُبُلًا منَ الخوارقِ، فلمَّا اختلفَ تعلُّقُ الجملِ اختلفَ الالتفاتُ.

سرُّ إظهارِ الاسمِ الأحسنِ دون إضمارِه في قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾:

تظهرُ تجلّياتُ الاسمِ الأحسنِ في سياقِ الهدايةِ

التّعبيرُ بالاسمِ الأحسَنِ (اللّه) يُوحي إلى عظيمِ تلك المشيئةِ وتقديرِها، حيث إنَّ اللّهَ تعالى هو صاحبُ المشيئةِ المطلقةِ، وسياقُ الآياتِ مُتعلِّقٌ بهدايةِ النَّاسِ، فناسبَ ذكرُ الاسمِ الأحسَنِ دون أن يُقالَ: إلّا أن نشاءَ، كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: 18].

فوقعَ إظهارُ اسمِ الجلالةِ في مقامِ الإضمارِ؛ لأنّ اسمَ الجلالةِ يُومئُ إلى مقامِ الإطلاقِ، وهو مقامُ مَن ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: 23]، ويُومئُ إلى أنّ ذلك جرَى على حسبِ الحكمةِ؛ لأنّ اسمَ الجلالةِ يتضمّنُ جميعَ صفاتِ الكمالِ[1].

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

حرفُ الواو إمَّا بمعنى الاستئنافِ؛ والمعنى: فأكثرُ هؤلاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/7.

المعاندين يجهلون عظيمَ شأنِ الله تعالى وقُدرته وجلالةِ قَدره، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ [الزمر: 67]، فاستأنفَ لبيانِ شأنِ النّاس بقُدرته سبحانه وبالحقيقةِ المُغيّبةِ عن حواسِّهم ومشاهداتِهم وأسماعِهم؛ ظانّين أنّ الواقعَ الّذي يَعيشون ويَتحسّسُون هو نهايةُ مطافِ الأقدارِ والوجودِ، وهذا هو شأنُ المنكِرين والمُلحدين في كلّ زمانٍ ومكانٍ، إذْ أدّى بهم جهلُهم إلى هذه العُزلةِ العلميّةِ، وإلى هذا الجهلِ المُطبَقِ.

الجهلُ بالحقِّ والإصرارُ على المناكدةِ علّةُ عدمِ الإيمانِ

وإمّا بمعنى الحالِ؛ والمعنى: أنّ هؤلاء المعاندين لا يؤمنون بعدَ مجيءِ تلك الخوارقِ؛ لأنّ أكثرَهم يجهلون الحقَّ، ولا يريدون الانصياعَ له، ففيها معنى التّعليلِ، كأنّه قال: لأنّ حالَهمُ الجهلُ.

دلالةُ الاستدراكِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾:

الاستدراكُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾ شديدُ التّعلُّقِ بقولِه: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، المُقتضِي أنّهم يُؤمنُون إذا شاء اللّهُ إيمانَهم: ذلك أنّهم ما سألُوا الآياتِ إلّا للتّعجيزِ ولتوجيهِ بقائِهم على دينِهم، فإنّهُم كانُوا مُصمِّمين على نبْذِ دعوةِ الإيمان، وإنّما يتعلّلون بالعللِ وبطلبِ الآياتِ استهزاءً، فكان إيمانُهم في نظرِهم من قَبيل المُحال، فبيّن اللّهُ لهم، أنّه إذا شاء إيمانَهم آمنُوا، لكنّهم لا يؤمنون بسببِ الجهلِ الّذي يُوجِّهُهم في اتّخاذ قرارِ عدمِ الإيمانِ.

عدمُ الإيمانِ بسببِ الجهلِ نظرًا، يَزيدُهم جَهلًا عندَ الإصرارِ فعلًا

ويجوزُ أن يكون الاستدراكُ راجعًا إلى انتفاءِ إيمانِهم، مع إظهار الآياتِ لهم؛ أي: لا يُؤمنون، ويَزيدُهم ذلك جهلًا على جهلِهم؛ لأنّهم مُستهزئُون[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/7.

وهذان المعْنَيان لا يتعارضَان؛ فإنَّ عدمَ إيمانِهم بسببِ الجهلِ نظرًا، يزيدُهم جهلًا عندَ الإصرارِ على عدمِ الإيمانِ فعلًا.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالأكثريَّةِ في: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾:

النَّظمُ يتوخَّى العِلمَ والعدلَ في الحُكمِ على النَّاس

إسنادُ الجهلِ إلى أكثرِهم في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾، فلم يقُلْ: (ولكنَّهم يجهلون)، يدُلُّ على أنّ منهُم عُقلاءَ، ونُكتةُ التَّعبيرِ بالأكثريّةِ فيه بيانُ علْمِ اللّه تعالى بالغيبِ العظيمِ الّذي تضمّنَ إحصاءَ ما في نفوسِهم منَ الجهلِ العلميِّ، أو الإنكارِ لِمَا عرفُوا منَ الحقّ، والتّعبيرُ بصيغةِ المبالغةِ (أفعل) تدلُّ على أنّ نسبةً عاليةً منهم يتّصفُون بصفةِ الجهلِ، فتكونُ تلك الأكثريّةُ غالبةً على رأي مُجتمعِهم، فلا يظهرُ لِلأَقَلِّيَّةِ المؤمنةِ أو المنصفةِ رأيٌ أو أهمّيّةٌ أو أثرٌ، وهذا دليلُ العلمِ والعدلِ، فعلمَ سبحانَه واقعَ النُّفوسِ، وحَكمَ عليها حُكمًا عادلًا، فلم يشملِ التَّعبيرُ الجميعَ بلِ الأكثرَ.

نكتةُ الإضمارِ ومرجعُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾:

الإضمارُ أنسبُ للسِّياقِ، وفيه تحقيرٌ وعدمُ التفاتٍ للمشركين

الضّميرُ في ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ عائدٌ على ما عادت عليه الضّمائرُ قبل منَ الكفّار؛ أي: يجهلون الحقَّ، أو يجهلون أنّه لا يجوز اقتراحُ الآيات بعد أن رأوا آيةً واحدةً، أو يجهلون أنّ كلًّا منَ الإيمان والكفر، هو بمشيئة اللّه وقدره.

وجاء السِّياقُ الكريمُ بالإضمار دون الإظهار، فلم يقُل: (ولكنّ أكثر النّاس)؛ لأنَّ المشركين هم جزءٌ منَ النّاس، وليسوا كلَّ النّاس، فهناك منَ النّاس من آمن باللّه ورسوله وآياته، ولم يطلب شروطًا مستحيلةً للإيمان كما عاند هؤلاء المشركون، فالإضمارُ فيه تحقيرٌ وعدمُ التفاتٍ لهم، ويدلُّ على أنّ المشركين هم مجموعةٌ واحدةٌ، لهم صفاتٌ مشتركةٌ؛ وهي الجهلُ والعنادُ والإصرارُ على الكفر، ويدلُّ على أنّ المشركين هم محدودو العددِ والزّمانِ، فإنَّ كلامَ اللّه تعالى خالدٌ لا يتبدَّل، ولا يختصُّ بزمانٍ دون زمانٍ، فإذا قيل: (أكثر

النّاس) لزم أن يشملَ ذلك كلَّ الأزمان والأمكنة، وهذا لا يصحُّ في معنى الآية الْبَتّة.

غرضُ التَّعبيرِ بمفردةِ ﴿يَجْهَلُونَ﴾:

اشتمالُ معنى الجهلِ ما يُقابلُ العلمَ والحلمَ معًا

جاءَ التَّعبيرُ بإثباتِ الجهلِ لا نفْيِ العلْم، فلم يقُل: (لا يعلمون)، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام: 37]، علمًا بأنّ صيغةَ التَّعبيرِ بـ ﴿يَجْهَلُونَ﴾ بالياء لم ترِدْ في القرآن إلّا في هذا الموضع، بينما في بقيَّة آي القرآن جاء التَّعبيرُ بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ الّذي اقتربَ من تسعةِ مواضعَ، وذلك للإيماءِ إلى ما يجولُ في دواخلِهم منَ الإصرارِ؛ فهم علمُوا الحقَّ ممّا يمكنُ أن يروْه منَ الآيات حولَهم، ولكنَّهُم جهلُوا إنكارًا للحقيقة، وترويجًا للباطل.

والمُرادُ بالجَهل هنا المقابلُ للعلْمِ والحلْمِ، فكلا الأمرين حاصلٌ عندَهم، فالجهلُ بالعلم حاصلٌ في هذا العصر عندَ كبارِ علماءِ الطّبيعيّات؛ إذ يجهلون علمَ الغيب؛ وهو الحقيقةُ الكُبرى، فيظنّون أنَّ العلمَ هو ما يعايشُونه منَ الواقع والأحداثِ حولَهم، ويكتشفونَه بالبحثِ والملاحظةِ والتّجربةِ، فتراهُم يُنكرون عالَمَ الغيب الّذي هو لُبُّ الإيمانِ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3]، ومنهم من أصابَه جهلُ الحِلْم لا جهلُ العلْم، وهو الأنسبُ للعامّةِ منَ النّاس لاستعمال الأكثريّةِ، وهو أرسخُ في تثبيتِ قيمةِ الهدايةِ، وهو ما يُوجّهُ استعمالَه في هذا الموضع الفريدِ في القرآن، ومن ذلك قولُ عمرِو بن كلثومٍ التَّغلبيِّ:

أَلَا لا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ علينـا *** فَنَجهَلَ فَوقَ جَهلِ الجَاهِلِينَـا[1]

والمعنى: مَن يجهلْ علينا فسوف نهلكُه ونعاقبُه بما هو أعظمُ من جهْلِه.

(1) القرشّي، جمهرة أشعار العرب، ص: 300.

نُكتةُ استعمالِ صيغةِ المُضارِعِ في: ﴿يَجْهَلُونَ﴾:

جـاهـلـيّـةُ المعانِدين تزدادُ عُمْقًا بإصرارِهم على الكفرِ

مع مرور الزّمن يزدادُ الإنسانُ علْمًا وخبرةً؛ ولكنّ هؤلاء يزدادون جهلًا وسَفهًا بتجدّدِ عنادِهم وإصرارِهم على الكُفر، وهذا هو عينُ الجهل، الّذي يتجدّدُ بتجدُّد الحِيَلِ والمَكر والحُججِ الّتي يخترعونها هروبًا منَ الإيمان وأدلّته وآياته البيّنة؛ فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾، فيُرجّحُ استعمالَ المُضارع هُنا أنّ هؤلاء همُ المُعاندون المُنكرون المُصرّون على كُفرِهم وعنادِهم.

نُكتةُ حذفِ المفعولِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾:

إيـجـازُ حـذفِ المـفـعـولِ يُـتيحُ لـلـذّهـن سَـعـةَ الـفـهـم وتـنـوُّعَ المعنى

النّكتةُ في حذفِ المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ العمومُ وتنوّعُ المعنى وتعدّدُه، فيدخلُ فيه الحقُّ الّذي جاءَت به الرّسالةُ السّماويّةُ منَ الإيمان بالخالقِ الواحدِ، وعظيم شأنِ الله، وقُدرتِه في أن يأتيَ بالآيات الّتي اقترحوها كلَّها مجتمعةً، وأنَّ الهدايةَ بيدِ الله سُبحانَه؛ فيدلُّ حذفُ المفعولِ على مشيئتِه سُبحانَه وقُدرتِه في تسييرِ أمورِهم واختيارِهم وإيمانِهم، فهو المُهيمنُ سبحانَه، وما كان ينبغِي أن يكونَ لأحدٍ اختيارٌ فوقَ اختيارِ الله تعالى.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 11 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-63-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 11 : سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-63-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»